

# رقى الأسرة المسلمة

وعداثة برقى الأمم الإسلامية

حضرة صاحب السعادة صالح عنان باشا

أما أن لنا نحن المسلمين مجدا قديما وتاريخنا عظيما فذلك أمر لا مصرية فيه . وفي وسعنا ان نباهى بأبائنا ما وسعتنا البهاة ، وأن نتحدث بفتوحاتهم وسعة سلطانهم وجلال مدنيهم وفرط نبوغهم في مختلف العلوم والفنون ، من طب إلى فلسفة إلى تشريع إلى رياضة إلى عمارة إلى شعر إلى موسيقى ، ولن يكذبنا أحد إذا قلنا إننا كنا في تكوين دولتنا الواسعة الأطراف أسرع من المصريين القدماء ومن اليونان والرومان ، فكل أولئك تكونت عظمتهم في قرون ، أما الملك الكبير الذي أنشأ المسلمون في قارات ثلاث فقد أقامته أيدي الفطاريق الصناديد في ثمانين عاما .

وأما أن ديننا الذي اتخذناه أبائنا دستورا وهاديا ، دين مدنية وعلم وعدل وتعاون وتسامح وبر بالمجتمع الانساني كله فذلك حق لا ينكره علينا منصف ولا عاقل .

ولكن ماذا تجدى البهاة بماضينا ؟ وما الغناء في ثنائنا على ديننا وتعدادنا لفضائله ، إذا كان واقع الحال أننا تأخرنا عن صفوف الأمم الناهضة ، وعجزنا عن صيانة ما تركه الأسلاف من تراث جليل ؟ وأي عزاء لنا بالتعزى بمن التاريخ وما تكتب الأقدار على الأمم من ذل بعد عز ، وسقوط بعد ارتفاع ، وموت بعد حياة ؟ ؟

ليس في هذا كله ما يرأب الصدع أو يضمده الجرح أو يعيد المجد سيرته الأولى . وإنما للنهوض أسباب وللسقوط أسباب . فلنعرف كيف ارتفع السابقون ، وما هي الوسائل التي هيات لهم الحياة المطمئنة والملك الكبير ، ولنحاول الأخذ بها مرة أخرى إذا كنا تواقين حقا إلى رد ما فات ووصل ما انتقطع .

لست أعزو المجد الغابر والتأخر الحاضر إلا إلى حال الأسرة أمس واليوم ، فان الأسرة المطمئنة أساس المجتمع المطمئن ، وإذا كان الذين بنوا ذلك الماضي الجليل هم رجال أشداء ، أقوياء النفوس والأجسام ، فأنما أنجبهم نساء صالحات كز . بعشن عيشة راضية قويمية شريفة عاملة مجدة .

فالمرأة إذن هي أساس الأسرة ، ولا يصلح الرجل إلا بصلاحتها كما لا تصلح الثرة لا بصلاح شجرتها .

كان المسلمون الأول يعرفون دينهم على حقيقته ، ويعرفون أنه دين تعمير وقربى وإحاء ، ويعرفون أن قوامه الرجال على النساء ليست مجرد استمتاع وتحكم وامتلاك كما تمتلك الضياع أو كما يتصرف المرء في السلع والمشتريات ، بل كانت القوامه عندهم مسئولية في علق الرجل ترتب للمرأة حقوقها وتعين واجباتها . كان الرجل يعلم أن من واجبه تهيئة الحياة الرغدة لزوجته ، وخدمة صحتها وتقافتها بقدر ما في وسعه ، لتكون قادرة على إعداد أبناء وبنات ينشؤون على مثال أبوسهم برة صالحين نافعين ، لا خاملين ولا متمردين ولا مدللين ، ولا منصرفين عن جد الحياة إلى طوها ، وعن صالح العمل إلى سبئه .

كان الزواج فيما يفهمه الرجل والمرأة معا من أحكام دينهما ، تعاوننا مثمرا وشركة دائمة لا يلفيها إلا الموت . فلم تكن الزوجة مهددة بطلاق مفاجئ يهدم معادتها ويحرم أبناءها من حضانتها أو من حضانة أبيهم ، أو بزوجة جديدة تقاسمها قلب زوجها وماله ، وتنقص عليها وعلى أولادها حياتهم ، وتنتج لهؤلاء الأولاد أخوة جددا قلما يكونون معهم على صفاء أو وداد ، بل لابد من انتزاع والتحاسد بينهم في حياة أبيهم وبعد مماته ، ومنهم من يتمرّد على أبيه ويكون نقمة عليه ، وهكذا يتقوض صرح الأسرة وتفشو في المجتمع الضغائن والعداوات ، ويقل التراحم والتعاون على العمل النافع .

”الطمأنينة“ هي التي أسعدت الزوجات فأسعدن الأزواج والأبناء ، فأصعدوا المجتمع بأسره . لأن الرجال مادامت حياتهم المنزلية مستقرة فهم ينصرفون إلى العمل غير منغصين ولا معوقين ، وما دام بالملم خلوا من هموم البيت ومن منازعات الأسرة فإن لذلك أثره الحسن في صحة أجسامهم وصفاء أذهانهم ومضاء عزائمهم والمجتمع الناجح إنما هو ذلك المجتمع الذي يتكوّن من رجال أصحاب الأبدان والأذهان والعزائم ، أولئك هم الذين ينهضون بالعلم ويعنون بالفن ويستنبطون الوسائل لرفع شأن الوطن وإعلاء كلمة الدين .

ولكن كيف تطلب هؤلاء الرجال وأين تجددهم ، إذا كان المجتمع قد فسد بفساد الأسر ، والأسر قد تقوضت وتفرقت كلمتها بزوال الطمأنينة عنها ، وما أزال هذه الطمأنينة إلا شيوع الطلاق وتعدد الزوجات ؟

ما من شك في أن الأسرة المسلمة اليوم ليست كالأسرة المسلمة بالأمس في ترابطها وتعاونها ومناة بناتها . ذلك أننا سممنا أن الإسلام يبيح الطلاق ففسدها الكثيرون منا بإباحة مطقة غير مقيدة شيد ، وظنوا أن المرأة ثمرة يعتصرون حلوها ثم ينبذونها ، أو لباس يزينون به أحسامهم مادام جديدا هفهافا ثم ياتقون به بين المهملات إذا طال عليه المههد ، ونسوا أن أزواج النبي كن عنده شريكات ومشيرات وراويات عنه العلم والحكمة والبيان ومن ثم فقد أسرفوا في طلاق مهملين زوجاتهم غير عابئين بمصيرهن . وهل يجعن أم يشبعن ، ويستعصمن

أم يسقطن، ومهماين أولادهم إلا من نفقة سخية أو بخيلة، غير مهتمين بمصيرهم . أى أمان بعد ذلك على مستقبل أولئك الأولاد مادامت الرقابة عليهم منقرصة وما داموا قد رأوا من أويهم هذا المثل السيئ في التقاطع والاستحفاف بالأواصر . وأى عجب بعد ذلك أن يوجد منهم من يشق عصا الطاعة على أمه أو أبيه ؟

لقد غاب عن أولئك المسرفين في الطلاق، المستهينين بهواقبه، أن الاسلام الذى يعملونه حجتهم وإمامهم قد قال بلسان من بلغه إلى الناس " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " .

وكذلك عمد أناس إلى قول الله تعالى " فأنكحوا ما طاب لكم من النساء منى وثلاث ورباع " فأخذوا به دون قيد ولا شرط ، وتركوا قوله " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة " ثم قوله بعد ذلك " وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل " وكذلك تركوا ما حتمته السنة وآراء علماء الدين من ضرورة وجود سبب قاهر يدهو إلى التعدد ، كعقم أو مرض أو غيرهما ، فهم لا يبحثون الأسباب ولا يستطيعون العدل ولا كبح الميل ، وكل ما يعينهم هو إرضاء شهواتهم ومطابرة غرائزهم ، ووراء ذلك ما وراءه من صسر في العيش وتفرق وشتاق بين الإخوة غير الأشقاء وسوء مصير أئثرهم ، وشقاء الأسرة والمجتمع بهم وإمهاتهم .

بهذه العلل ومثالها همت عرى الأسرة الاسلامية ، ولم يكن الذنب بالطبع ذنب هذا الشرع الاسلامى الحكيم ، بل ذنب الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، والذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، والذين يكيفون شهواتهم وأهواءهم تكييفاً دينياً ظالماً ، وصدق المعرى إذ قال :

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل !

لقد نبث الأمم الاسلامية ونمت وترعرعت في ظل دستور حازم مصلح حكيم ، فلما تحايلت على نصوصه وأعملت فيها سوء التأويل والتفسير وتصرفت كما شاء لها الهوى بالتجليل والتحريم ، اختلط الأمر على أصحابه وفسدت الأوضاع وانحلت الروابط وقررت الهمم وتأخرنا في معضمار العلم والحضارة بل عجزنا حتى عن التفكير السديد .

" الأسرة " كما قلت ، هى أساس نمو المجتمع مادامت بخير ، وهى علة تأخره مادامت واهنة معرومة من الطمأنينة . وليس أسرع تصفاً بالطمأنينة من أن تعيش الزوجة مهددة بالطلاق وتعدد الزوجات ، ولا أسوأ أثراً في حياة الأسرة من أن يمضى الزوج فيهما دون القيود الثقيلة التى وضعها الاسلام لهما .

فتحن في أشد الحاجة إلى إعادة الطمأنينة إلى الزوجات لتعود إلى الأسر ، وذلك لا يكون إلا بوضع تشريعات ترد الطلاق والتعدد إلى حدود التعاليم الإسلامية الصحيحة .

صالح عنان